الوظيفة السيكولوجية للخيال في الحكاية الشعبية ووقعها على نفسية الطفل

الدكتورة : نبيلة بلعبدي

جامعة حسيبة بن بوعلي ـ الشلف ـ

البريد الالكتروني: n_belabdi@yahoo.fr

الملخص :

تحظى الحكاية الشعبية بإقبال واسع لدى جميع الفئات الشعبية ولا سيما الأطفال الذين يُعتبرون مستمعين ممتازين، يشغفهم ذلك الخيال الذي يدعم أحلامهم وطموحاتهم، فيعيش الطفل جوا حالما محلقا في فضاءات تبعده عن المادية التي يعيشها، فيعطي عقله قسطا من الراحة ليسافر عبر الزمن ويلتقي مع لشخصيات اللاإنسانية بصفاتهم الخارقة ويمحي لبعض الوقت كلمة مستحيل من قاموسه، فتُشحذ نفسيته طاقة إيجابية يواصل من خلالها رحلته في عالم الواقع بنفس جديد وتفاؤل لا متناهٍ.

كثيرا ما يُنظر إلى الخيال في الحكاية الشعبية إلى أنه مجرد ثرثرة عجائز لا فائدة منها، وأنه تسلية الأولين في الأزمنة الغابرة عندما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يرى ويجد ما يريد، إلا أن علماء النفس لهم رأي آخر في الخيال الفني في الحكاية الشعبية ويجزمون أنع أساس كل إبداع، وأقوى علاج للاكتئاب، وأحسن المقويات للإرادة وتحقيق الأهداف، وهم ينصحون بتنشئة الأطفال على سماح الحكايات الشعبية ذات الطابع الخرافي لما فيها من دروس تربوية كالدعوة إلى الخير والعدل، ودعم قدرات الطفل من أجل تحقيق أهدافه، هذا ما سنتناوله من خلال هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية، الطفل، الخيال، السيكولوجيا.

ينصب اهتمام الباحثون التراثيون على دراستهم للحكاية الشعبية نظرا لثرائها بالقيم الجمالية والفنية والروحية، ونظرا لأن الخيال والخوارق أهم ما يميزها، وماهو في الحقيقة إلا رحلة في عالم المغامرة ومحاولة لإثبات الوجود وإيجاد الحلول لمرارة الحياة ومصاعبها، إذ أن الحكاية عبارة عن محاكاة لواقع نفسي واجتماعي مليء بالعقبات والأحزان، وإذا كان الخيال الفني في القصص بالنسبة للمستمعين عبارة عن أحداث مستحيلة تشبه مايراه النائم في المنام وهي ليست أكثر من تسلية، وبالنسبة للنقاد عبارة عن مضامين عجائبية جعلتهم يطلقون تسمية الحكايات الخرافية على هذا النوع من القصص، فإن المختصين النفسانيين لهم رأي آخر.

الحكاية الشعبية والمنهج النفسي:

دُرست الحكاية بمناهج متعددة منها النقدية والتاريخية والاجتماعية والنفسية، والمنهج النفسي يقوم بدراسة السلوكات والحالة النفسية من خلال الإنتاج الأدبي، ويبحث عن السبب الذي قام فعل الكتابة من أجله "ففي القصص الشعبي يجد الإنسان متنفسا له من كل أنواع الضغوط الاجتماعية، إنها وظيفة نفسية في المحل الأول حيث تتوازى الأهداف البعيدة المكبوتة في الشعور واللاشعور خلف الحكاية فتبرز تلك المشاعر الدفينة التي عمل التطور الحضاري على تحريرها ومنع الفرد من مزاولاتها"(1)

التحليل النفسي للحكاية الشعبية عند فرويد، يونغ، وبرينو بتلهايم:

ظهرت مدرسة التحليل النفسي الألمانية مع مطلع القرن العشرين وصاحبها سيغموند فرويد درس أهمية اللاشعور والعوامل الجنسية في طور الطفولة وانعكاساتها على حياة الفرد، واستفاد من تجاربه ليطبق هذه المفاهيم على النصوص الأدبية والفنية بكل أنواعها كالأساطير والحكايات الشعبية ذات الطابع الخرافي مركزا على سلوك الإنسان ونفسيته(2).

وكارل غوستاف يونغ هو أحد تلامذة فرويد طبيب وأخصائي نفساني سويسري صاحب مدرسة علم النفس التحليلي، استفاد من علم النفس والأنثروبولوجيا وتاريخ الأديان والميثولوجيا، ومن بين نظرياته في تفسير الرموز الدينية ودراسته التحليلية عن نفسيات الشعوب هو أن اعتقاده أن التاريخ يفصل الشعوب عن بعضها والأساطير هي التي توحدها(3)

يرى يونغ أن النفس تتكون من قسمين وهما الوعي وهو المدركات عند الإنسان، واللاوعي وهو ما يقوم به الإنسان دون إدراك، ويُعرف بأنه خالف أستاذه فرويد في تفسيره للحكايات الشعبية التي أرجعها إلى الغريزة الجنسية أو ما يُعرف بالليبيدو، " والعديد من علماء النفس "يرون أن تطبيق نظريات فرويد الجنسية على كل الظواهر النفسية وعلى كل تعبير أدبي فيه الكثير من التعسف"4 وإذا كان فرويد قد رز على اللاشعور الفردي أكثر من اللاشعور الجمعي فإن يونغ ركز على اللاشعور الجمعي المتوارث والمشترك بين الناس ومنه يستمد الأدباء والفنانون صورهم وأخيلتهم، ومن خلاله اعتمد على دراسته التحليلية النفسية للقصص الشعبية(5)

معنى هذا أن اللاشعور هو ملك للجماعة أو لأمة من الأمم تشترك فيه ويسميه أيضا النمط الأصلي ففيه المعتقدات والأعراف والأهداف المشتركة التي تُجسد في الأعمال الأدبية ولا سيما في الحكايات الشعبية، ويُعرف يونغ اللاشعور الجمعي بقوله: "هو ذاكرة الإنسانية، وبنية فطرية تتولد مع الإنسان ومكونه الأصلية ودراسة هذه الأركيولوجيا (الأثريات) النفسية والمقروءة في

الأديان والأساطير والقصص الشعبية والفن والشعر"(6) والخيال الذي يوظفه المبدع في أعماله هو نمط أصلي وهو جزء من اللاشعور الجمعي وهو الحافز الذي يدفع الإنسان إلى الكتابة والتخيل ونسج القصص ذات الطابع العجائبي، وهو تماما مثل الأحلام التي تشترك فيها البشرية والتي تعبر بالدرجة الأولى عن اللاوعي الفردي والجماعي .

وهاهو "برينو بتلهايم" صاحب كتاب "التحليل النفسي للحكاية الشعبية" قد فسر الحكاية الشعبية من الجانب النفسي بالاعتماد على تأثر الطفل بالحكاية الشعبية، فمحور كتابه هو الطفل، وموضوعه هو التحليل النفسي، وأما مادته فهي الحكاية الشعبية ذلك أن العديد منها موجهة للأطفال وأغلب أبطالها أطفال(7)

ويشير بتلهايم إلى أن للحكاية دور مهم في بناء نفسية الطفل وتوجيه سلوكاته وتقويم أخلاقه وهو يقول إن "الحكاية الشعبية موجهة نحو المستقبل وهي تعمل كمرشدة للطفل بواسطة تعابير يستطيع أن يدركها شعوره ولاشعوره، فتساعده على رفض الرغبات الطفولية بالتبعية، وعلى أن يصل إلى وجود مستقبل أكثر إعجابا وإرضاءًا"(8)

وقع الحكاية الشعبية على نفسية الطفل:

يؤكد "بتلهايم " على الدور الإيجابي والأثر الطيب الذي تتركه الحكاية في نفسية الطفل إذ تجعله يفكر بمرونة، ويتعلم منها بطريقة تحرك مشاعره فيتفاعل معها حزنا أو فرحاً، ويستنتج من خلالها الحكمة والدرس الأخلاقي، وهي أحسن وسيلة لتوجيه الطفل كونها تلبي جميع رغباته النفسية "لقد دافع بتلهايم عن رأيه الذي يقول إن الحكايات الشعبية مهمة في تربية الطفل، وهي أحسن من القصص الواقعية التي تعد بعيدة عن عالم الطفل الداخلي ومشاكله النفسية، لأن الحكاية الشعبية تجيب في نظره عن الأسئلة الوجودية للطفل: من أنا؟ من أين أتيت؟ كيف خُلِق العالم؟"(9)

وقد حصر "بتلهايم" أهمية تنشئة الطفل على الحكايات الشعبية في النقاط التالية:

. تعرف الطفل على نفسيته وفهمها بشكل أفضل.

. تسهم الحكاية في تربية الطفل وتوجيهه أخلاقيا وتقويمه سلوكيا.

. تعود الطفل على النظام خاصة في بيته.

. تعالج الحكاية الشعبية مشاكل الطفل الوجودية(10)

لذا يُنصح بتنشئة الأطفال على سماع الحكايات الشعبية وخصوصا ذات الطابع الخرافي ليعيشوا لحظات رعب أو سعادة تداعب أنفسهم البريئة، فيستمتعون بأدوار الشخوص اللاإنسانية وقواها الخارقة، والحيوانات التي تعقل وتتكلم ويكيد بعضها للآخر، وقدرات الإنسان

التي لا تعرف الحدود كالتشكل في صور شتى أو إمكانية الطيران، فما مدى انعكاس هذا الخيال على نفسية الطفل؟

أهمية الخيال في الحكاية الشعبية وانعكاساته الإيجابية على نفسية الطفل:

يُولع الإنسان ولا سيما الأطفال بالخيال والخوارق التي تزيد الحكايات الشعبية متعة ورونقا، فهي عبارة عن محاكاة الواقع المرير وتقليده، واستخدام الخيال هو بمثابة إيجاد الحلول وتحقيق الأحلام بطريقة سحرية ممتعة، والأطفال مولعون بالحكايات الخرافية لأنها تناسب خيالهم النامي، وهم أكثر الناس تأثرا بالحكاية، وقد فطر الناس على حب القصص وعوالمها، كما أصبحت القصة أسلوبا حديثا لتربية الصغار وتعليمهم شتى أنواع العلوم والمعارف(11) "ومن هنا فإن علماء التحليل النفسي يشبهون أحداث الحكاية بما يراه النائمون في الأحلام، أمنيات تتحقق وغايات تصبح في متناول اليد"(12)

هكذا يشارك الأطفال بإنسانيتهم البريئة مآسي المظلومين وفرحة المنتصرين، فيشعرون بتحقيق أهدافهم وانتصار الخير على الشر بعدما سافروا من عالم واقعي مليء بالممنوعات إلى عالم سمح لهم بتحقيق "تلك الرغبات الدفينة في أحداث ووقائع لا يسمح بها العرف والتقاليد أو الإطار الحضاري العام"(13) وبالتالي نستنتج أن الخيال يداعب مشاعر الطفل فينشأ على حب الخير ونصرة المظلوم والسعي وراء تحقيق الأهداف والإصرار عليها .

والحكايات التي تستهوي الطفل هي المفعمة بالخيال والخوارق والشخصيات اللاإنسانية، فالغيلان مثلا شخصيات لاإنسانية تُوظف لتجسيد الشر والظلم والفساد وتصورهم الحكاية في أبشع صورة، فإذ تمتص ثروات الناس وسعادتهم وتكون تغذيتها من اللحم البشري، لكن قد يظهر بطل يمتلك من الحكمة والذكاء ما يخوله للقضاء على هذا الغول الظالم، وقد يصبح ملكا بعدما كان من عامة الناس فيحقق العدالة ويعيش الناس في سعادة وينالون حوقهم، قد يترك هذا النمط من القصص الأثر الطيب في نفسية الطفل فيستنتج أن الذكاء والفطنة أهم من القوة والثروة، وأنه يمكن التصدي للظلم وكسره .

وأما الحكاية الخرافية فيعرفها "فريدريش فون دير لاين" على أنها "بقايا معتقدات شعبية، كما أنها تأملات بقايا الشعب الحسية، وبقايا قواه وخبراته حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف، وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى، وحينما كان يؤثر فيما حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها"(14) يجمع هذا النمط من القصص شتى أنواع الخيال والخوارق كجواز الطيران بالنسبة للإنسان، أو مساعدة الجن والعفاريت له فيطيرون به

مسافات طويلة في مدة زمنية قصيرة قصد مساعدته في تحقيق مطلب تعجيزي مثلا، أو استخدام الأدوات السحرية كالمصباح والخاتم السحريين، ونجد الدور نفسه في حكايات ألف ليلة وليلة، أو التكلم مع شخص عن بعد في المرآة.

لكن الطفل لا يستقبل هذا الخيال على أنه من المستحيلات، بل يستمتع به ويغذي إرادته للعمل على تحقيقه بطريقة أو بأخرى، ففكرة الطيران كانت موجودة منذ قدم العصور، ولطالما حلم الإنسان بذلك وعبّر عنها في الحكايات والأساطير، ولا شك أن مخترعي الطائرات كانوا أطفالا استهوتهم القصص المشبعة بالخيال الذي غذى إرادتهم التي لا تعترف بالمستحيل وبعد عديد المحاولات توصل الإنسان إلى هذه الاختراعات العظيمة كالطائرات والصواريخ.

وفكرة الحديث عن بعد لم يتلقاها الطفل على أنها ضرب من الخيال، بل جسدها في الواقع لما اقترن الخيال بالإرادة والعلم، فاختُرِع الهاتف النقال وحقق حلم البشرية وأصبح الحديث عن بعد سمعي وبصري، والأدوات السحرية التي كانت تساعد البطل على تحقيق المطالب جُسِّدت في الحواسيب والشاشات والآلات التي تمكننا من معرفة أية معلومة، أو قضاء أي حاجة فتُكسبنا الوقت وتوفر علينا الجهد، ليكون الخيال بعد ذلك عنوانا للإبداع .

لذا يُصر علماء النفس على ضرورة تنشئة الطفل على سماع القصص ذات الطابع الخرافي الخيالي، حتى نزرع فيه بذور الإبداع منذ الصغر، فهو في حاجة إلى التحرر من عالم مادي وواقعي من خلال التلقين والتعليم الدقيق الذي سيجعل منه شخصا جافا محدود الطموح، ولا شك أن كبار العلماء والمخترعين والمبدعين هم أصحاب خيال واسع رافقهم منذ الصغر كسماعهم للقصص الحافلة بالخيال.

وأعظم علماء البشرية يؤكدون ذلك ومن بينهم العالم "ألبرت أينشتاين" (1879 . 1955) عندما قال "الخيال أهم من المعرفة، "والخيال هو القدرة على تكوين تصورات ذهنية غير موجودة في لواقع الملموس انطلاقا من أجزاء عناصر موجودة، وترتبط بهذه الصور أحاسيس وانفعالات تؤثر في الشخصية التي تصدر عنه، له دور مهم في مراحل نمو الطفل...يساعده على التفكير والابتكار وتحريك القدرات وتنمية مهارات الحياة .ويمكن ملاحظة نموه في لغته وسلوكه اليومي وتعامله مع ألعابه وعلاقته برفاقه الواقعيين والوهميين. وفي كل هذه المجالات يتخيل الطفل مجتمعات خلابة تحتوي على كائنات منسجمة لا تعرف الأحزان ولا الهموم المزعجة"(15)ولن يجد الطفل خيرا من الحكاية وسيلة لتنمية قدراته التخييلية والعقلية التي ستؤدي به

حتما إلى تحقيق الأهداف وطلب الأحسن، وعدم الاستسلام عند الإخفاق حتى يرى في أحلامه الحقيقة مجسدة .

ويرى" حامد عب السلام زهران" أن الطفل يرى في القصص الخيالية واقعا، ويكون خياله خصبا فياضا يملأ عن طريقه فجوات حديثه فتبدو كذبا خياليا"(16) وقد يميل الأطفال في السادسة من العمر إلى اللعب والحركة والتجربة واستخدام الأدوات المختلفة بحماسة كبيرة وبفوضى عارمة، وأما في سن السابعة وما بعدها يأتي دور التجربة والابتكار والوقوف على الحقائق التي يجدها في الكتب والصور والوسائل والقصص ليجيب عن تساؤلاته العديدة، فتنمو ذاكرته وفهمه وتفسيره للأمور ويبدأ فكره بالتطور (17)

إذن من المهم جدا أن نعود الطفل على سماع القصص بكثافة قبل سن السابعة لتجسد السنوات التي بعدها الفكر والابتكار، فالطفال الذين يتخيلون العصا حصانا والقدر مقودا، ينتقلون إلى خيال من نوع آخر سماه "هادي النعمان الهيتي" الخيال المنطلق، ومعناه إبداء الرغبة في ركوب الحصان وقيادة السيارة، أي أنه يتجه بخيالاته إلى الواقعية ويدوم ذلك حتى سن التاسعة (18)، وبعد ذلك يظطرون للاستيقاظ حيث يوقظهم المجتمع ويدفعهم للعيش في العالم الواقعي(19).

معنى هذا أن الخيال يختلف عند الطفل حسب سنه فيكون مكثفا ليتجه إلى الواقعية ومن المهم أن نوجه إلى الطفل لغة وأدبا تتناسب مع سنه كتقديم القصص ذات الطابع الخرافي والعجائبي حتى سن السابعة، والاتجاه نحو الواقعية بعد ذلك " فهو ينشط في مرحلة ما ويتطور . ويبدأ بالخيال المقلد الذي يسمح له بتصور الصورة في الحكايات، وينتقل إلى الخيال الإبداعي الذي يفضله بفضل صورة جديدة تماما . ويستطيع في سنته الخامسة أن يفهم الصور الفعلية الخيالية العلمية. وفي سن العاشرة يحكي بشغف شديد الحكايات المرعبة "(20)

فبعد أن كانت قصص الغيلان الجان والعفاريت تثير مخاوف الطفل في صباه ويتخيلها في أبشع صورة مجسدا فيها قوى الشر والأذى، يراها مع تقدم عمره قوى سلبية لكنها تثير الإعجاب والخوض في المغامرة، والتغلب عليها ما هو سوى انتصار الإنسانية على ما يكدر صفوها، لذا يشعر الطفل بالاستمتاع وهو يهزمها وخصوصا لما تيقن أن وجودها غير ممكن، وإنما وُظفت لتجسيد قوى الشر التي يجب أن تحارب من أجل العيش في سلام.

هكذا هو عالم الطفل يستهويه عالم الخيال وكثرة الحركة وحب الألوان، وجدير بالأدباء أن يوفروا له ما يشبع رغباته من القصص العجيبة ليحلقوا في عالمها الساحر ويعيشون أحلاما

ممتعة، وبما أن رواية القصص قل تداولها مشافهة إن لم يكن قد انقرض، يمكن أن تعوض بالكتابة المسرحية التي لها كامل التأثير الإيجابي على تكوين الطفل النفسي والثقافي ومن ثمة الإبداعي، ويُعرف مسرح الطفل على أنه جنس من الأجناس الأدبية الموجهة له قصد تنمية ثقافته وتنمية جوانبه العقلية والوجدانية، وإشباع حاجاته كما يزوده بأنماط من السلوك الذي يزيد في خبرته. ومسرح الطفل يتوجه لمرحلة معينة من عمر الإنسان وهو وسيط من وسائط نقل الثقافة إلى الأطفال(21)

وهذا ما يؤكده الدكتور أحمد زلط عندما يقول "إن ميلاد ذلك الجنس قد ألقي به في تربة الأدب الشعبي، ثم تولى الأدب الرسمي رعايته ونموه من خلال إسهامات المبدعين "22 وهكذا من المهم أن تتضافر جهود الأدبين الشعبي والرسمي ويستفيد كل من الآخر في سبيل تنشئة الطفل بخيال واسع وإبداع واعد خصوصا وأن علماء النفس المختصين في علم النفس المعرفي يركزون حول كشف طبيعة العلاقة بين الخيال والإبداع، ولن نجد خيرا من القصص الشعبية المفعمة بالأساطير والطقوس والخيال زادا معرفيا نقدمه لأطفالنا، حتى نجعل منهم مبدعين وأذكياء .

ومع ذلك يجب أن نجعل من الخيال طريقة لتقوية العقيدة وغرس الإيمان، وتوجيهه لاكتساب القدوة الحسنة كسرد قصص البطولات التي انتصر فيها القادة الكبار على الأعداء الظالمين، وأهم من ذلك أن نقي أطفالنا من المغالطات المبثوثة في الخيال الفني السلبي الموجه للطفل عبر مسلسلات الكارتون التي تحث على العنف والعدوانية، وهي من التخطيطات الغربية المتطرفة التي توجه خيال طفل العالم الثالث إلى السلبية والعنف، ومن الواجب أن نربي أطفالنا ونوجههم الوجهة الصائبة ولا نتركهم لعبة في أيادي أعداء الإنسانية .

الإحالات

(1) عز الدين إسماعيل، القصص الشعبي في السودان، دراسة فنية للحكاية ووظيفتها، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1971، ص170

(2) ينظر: حليمي المليجي، علم النفس المعاصر، دار النهظة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 2008، ص49

(3) أمينة فزازي، مناهج دراسات الأدب الشعبي ،دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط1،200، ص197،196

(4) نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ،دار مكتبة غريب للطباعة ،ط1 ،1991، ص132

(5) ينظر: أنور عبد الحميد الموسى، علم النفس الأدبي منهج سيكولوجي، دار النهضة العربية، بيروت، 2011، ص62

(6) مريم سليم، علي زيغور، حقول علم النفس، دار النهضة العربية، بيروت ،ط2 ،2004 ،ص62

(7) ينظر: أمينة فزازي، مناهج ودراسات الأدب الشعبي، ص203

(8) برونو بتلهايم، التحليل النفسي للحكايات الشعبية، ترجمة طلال حرب، دار المروج للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت،1985، ص36

(9) أمينة فزازي، مناهج ودراسات الأدب الشعبي، ص204

(10) ينظر: المرجع نفسه، ص204 ،205

(11) ينظر: عمر عبد الرحمن الساريسي، الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1،بيروت،1980، ص270

(12) المرجع السابق، ص272

(13) عز الدين إسماعيل، القصص الشعبي في السودان، منشأة المعارف، الإسكندرية، دت، ص171وما بعدها .

(14) فريدريش فونديرلاين ،الحكاية الخرافية ' ترجمة نبيلة إبراهيم، تح: عز الدين إسماعيل، ط1، دار القلم، بيروت،1973، ص23

(15) حسن لبويز، الخيال ومراحل نمو الطفل، https://ahjamaa.net

(16) حامد عبد السلام زهران، علم النفس نمو الطفل من الطفولة إلى المراهقة، ط5، عالم الكتب، القاهرة، 1995، ص205

(17) ينظر: محمد عبد الرحيم عدس، الآباء وتربية الأبناء، مطبعة دار الفكر،ط5،عمان، 1995، ص108،107

(18) ينظر: هادي نعمان الهيتي، مرجع سابق ص32

(19) ينظر: جون جرادي، الأطفال من الجنة، مكتبة جرير، ط4، الرياض، 2009، ص101

(20) الموقع الإلكتروني السابق .

(21) ينظر: مفتاح محمد ذياب ،مقدمة في ثقافة وأدب الأطفال، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط1، 1995، ص102

(22) أحمد زلط، أدب الأطفال بين أحمد شوقي وعثمان جلال ،دار النشر للجامعات المصرية مكتبة وفاء، ط1، 1994، ص14